سيمياء المكان ما قبل حدث عاشوراء
في قصائد رثاء الإمام الحسين (عليه السلام)في الشعر العراقي الحديث

أ.د. طلال خليفة سلمان / قسم اللغة العربية/ كلية التربية للبنات/ جامعة بغداد
م. علية مسير رسن/ قسم اللغة العربية / كلية التربية للبنات / جامعة بغداد

الملخص:

إنّ الهدف المتوخّى من انتقاء عنوانٍ يدمج بين السيمياء والمكان يكمن في إنتاج مفهوم العلامة المكانية، وتحولات المكان بحسب تمظهرات تلك العلامات في جانبها اللساني، ولا يخفى ما لأهمية المكان في النصّ الأدبي بوصفه إطاراً لعناصر تشكّل في مجملها نصا سردياً سواء أكان رواية أم قصيدة سردية. إذ نروم في هذا البحث الوقوف على تحوّلات ذلك المكان ورصد العلامات الإشارية التي تكشف عن أثر اندماج عناصر السرد الشعري مع المكان؛ لتتمظهر بعد ذلك متتالية من التصنيفات تنبثق من ذلك الإندماج، فيتجلى لنا المكان الأليف، والمكان المعادي، والمكان الجغرافي بشقّيه المفتوح والمغلق، كما ينبغي الإشارة إلى اعتماد البحث على صنافة الأمكنة لدى غاستون باشلار في الكشف عن تحولات المكان بوساطة مؤشرات النصّ اللسانية.

الكلمات المفتاحية: (سيمياء المكان، حدث عاشوراء، قصائد رثاء الإمام).

Semiotics of the place before the event of Ashura
In the poems of lamentation of Imam Hussein (peace be upon him) in modern Iraqi poetry

Dr. Talal Khalifa Salman / Department of Arabic Language / College of Education for Girls / University of Baghdad
M. Aliya Mesir Rasan/ Department of Arabic Language/ College of Education for Girls/ University of Baghdad

Abstracts:

The objective of choosing a title that combines semiotics and place lies in producing the concept of a spatial sign, and the transformations of place according to the manifestations of those signs in their linguistic aspect. The importance of place in the literary text is well known as a framework for the elements that constitute a

narrative text as a whole, whether it is a novel or a narrative poem. As we aim in this research to stand on the transformations of that place and to monitor the indicative signs that reveal the impact of the merging of the elements of poetic narration with the place; Then a succession of classifications emerge from that merger, so the familiar place, the hostile place, and the geographical place appear in both its open and closed parts. It should also be noted that the research relied on Gaston Bachelard's classification of places in revealing place transformations through linguistic text indicators.

Keywords: (the semiotics of the place, the event of Ashura, the poems lamenting the imam).

توطئـــة:

يمثـل المكـان بوصـفه عنصـراً محوريـاً فـي بنيـة السـرد الإطـار الـذي يحـوي العناصـر السـردية الأخـرى مـن الحـدث، والشخصـيّة، والـزمن، فيـؤثر ويتـأثر بهـا، ممـا يـؤدي إلـى تحقيـق القيمـة النقديـة بوسـاطة التفاعـل بـين تلـك المكوّنـات السـردية، مجسّـدا لشـبكة علائقيـة مـن وجهـات النظـر كاشـفة عـن الفضـاء العـام للقصّـة، فهـل لنـا أن نقـول : إنّ المكـان هـو الـذي يؤسس السرد ؟

المكان : المصطلح والمفهوم

انطلاقـاً مـن إشـارات التنـوّع والتعـدّد لمتتاليـة الأدلّـة المرتبطـة بالسـياقات الخاصـة بالمكـان، التـي تبـدأ ممـا ورد فـي القـرآن الكـريم، فقـد سـعينا لرصـد تلـك الـدلالات التـي تناوبـت بـين (الموضـع)، أو (المحـل)، أو(المنزلـة)، وقـد أشـار صـاحب مفـردات غريـب القـرآن إلـى تلـك الـدلالات، ففـي قولـه تعـالى:((واذكر فـي الكتـاب مـريم إذ انتبـذت مـن أهلهـا مكانـاً شـرقياً))[١] يؤشـر دليـل (مكن)عنـد أهـل اللغـة إلـى المكـان: الموضـع الحـاوي للشـيء[٢]، وفـي موضـع آخـر قولـه تعـالى:((اعملـوا علـى مكـانتكم))[٣]؛ للدلالـة علـى المكانـة والمكـان[٤]، فـي حـين جـاء قولـه تعـالى : ((ذي قـوة عنـد ذي العـرش مكـين))[٥] دالّاً علـى القـدْر والمنزلة[١].

كان هذا التفاوت في الدلالة اللغوية لملفوظ (مكان)، أمّا في المستوى الاصطلاحي، فقد تجلّى المكان (space) بوصفه وسيلة لغوية تُوظّف في النصّ؛ للتعبير عن العلاقات بين عناصر السرد، بمعنى أنّ المكان ((لا يعيش منعزلاً عن باقي عناصر السرد، وإنّما يدخل في علاقات مع المكونات الحكائية الأخرى للسرد كالشخصيّات والأحداث والرؤيات السردية))[٢]، بيد أنّ تنوّع دلالات المكان، وتعدّدها لا يقتصر على المستوى اللغوي فحسب، بل صرنا أمام متتالية من المصطلحات المكانية، فمرّة نحظى بمقاربة تندرج في سياقات نقدية ترتبط بمفردة (الفضاء الروائي)، ومرّة ثانية تحت مسمى (الحيّز المكاني)، وثالثة تُشكّل من مصطلح (المكان) أساساً لها؛ ومن أجل ولوج هذا العالم المتداخل والمتضارب في مصطلحاته ينبغي أن نضع سؤالاً افتراضياً: هل المكان من يصنع المعنى؟ وإذا كان كذلك فهل يختلف المعنى باختلاف التعددية المصطلحية؟

يكتسب المكان أهميته في العمل الأدبي بصورة عامة من اختلاف الدلالات وتعدّدها بحسب التصوّرات التي جاء بها النقاد، فمنذ أن رأى غاستون باشلار أنّ المكان ينحصر في (البيت) ويعني به بيت الطفولة الذي يقول فيه: إنّه ((المكان الذي مارسنا فيه أحلام اليقظة وتَشَكّل في خيالنا))[٣]، وأوضح ياسين النصير أنّ ((المكان هو الكيان الاجتماعي الذي يحتوي على خلاصة التفاعل بين الإنسان ومجتمعه، ومنذ
القدم وحتى الوقت الحاضر كان المكان هو القرطاس المرئي القريب الذي سجّل الإنسان عليه ثقافته وفنونه وفكره))[١]، وليس هذا فحسب، بل راح المكان ((يُثير إحساساً بالمواطنة، وإحساساً آخر بالزمن والمخيّلة حتى لنحسبه الكيان الذي لا يحدث شيء بدونه))[٢]، كل ذلك يحيل على القول بأهمية المكان ودوره على مستوى الواقع ومستوى التخييل، كما عدّ بعض النقاد المكان عنصراً فاعلاً في تجسيد الأفكار والرموز والحقائق المجرّدة؛ من أجل تقريبها من الواقع [٣]. كانت تلك الدلالات قد تشكّلت من سياقات مرتبطة بحقول معرفية متعددة، ونحن نتبنى من الدلالات ما كان يؤشر إلى دور المكان في النصّ السردي بوصفه عنصراً محفزاً للسرد ؛ ذلك أن ((العمل الأدبي حين يفتقد المكانية فهو يفتقد خصوصيته، وبالتالي أصالته))[٤]، وقد يتشكّل المكان أيضاً من

تضافر الأوصاف والصور الأدبية فيما بينها، ويتمُّ الأمر بوساطة آليّة تجسيد المكان وهو الوصف، فيسهم بدوره في مسار إنتاج دلالي داخل العمل الأدبي والروائي على وجه الخصوص.

علاقة المكان بالعناصر السردية:

بعد أن تمّت الإشارة إلى التعددية الدلالية لعنصر المكان مع مقاربات له من الفضاء، والحيّز، ننتقل إلى دلالات المكان، فقد اتضح لكثير من الدارسين أن تلك الدلالات لا تتمظهر للمكان إلاّ مع اقترانه بغيره من العناصر السردية، وبوساطة الوصف تتكشف تلك العلاقات من علاقة المكان بالحدث وغيره من العناصر السردية، فأما علاقة المكان بالحدث فُتعدُّ إجابة لسؤال افتراضي مفاده: أين وقع ذلك الحدث؟

إنّ علاقة المكان بالحدث تبدو علاقة تلازمية، فلا وجود لحدث بلا مكان يجري فيه، وبما أنّنا نعتمد الجانب اللساني في مقاربة النصوص، فالحدث بعد ذلك يتشكّل من الفعل، وأنّ هذا الفعل تنهض به الذات الفاعلة، بمعنى آخر أنّ الشخصية هي من عليها أن تكشف لنا المكان، ذلك أنّ الإحساس بالمكان يتطلّب مراقبة الشخصيّة، فهي حاضرة في كل حين، وأن الرؤية ما تراها الشخصية، والإحساس ما تحسّه أيضاً بإزاء ذلك المكان؛ لارتباطها بفعل الكينونة، لذا فإنّ ((ظهور الشخصيات ونمو الأحداث التي تسهم فيها هي ما يساعد على تشكيل البناء المكاني في النصّ، فالمكان لا يتشكل إلاّ باختراق الأبطال له، وليس هناك بالنتيجة أي مكان محدد مسبقاً، وإنّما تتشكّل الأمكنة من خلال الأحداث التي يقوم بها الأبطال))[١]، من هنا فقد تمّ تحديد مهمة المكان الأساسية في ((التنظيم الدرامي للأحداث)) [٢]، وهو أمر ينطبق على المكان سواء أكان مشهداً وصفياً أم إطاراً للأحداث فحسب[٣]. وعليه فإنّ

الإشارة إلى المكان بوساطة العلامات الخاصة به من شأنها أن تكشف الإجابة عن السؤال الذي افترضناه والذي يدل على ما جرى في ذلك المكان أو ما سيجري فيه .

انطلاقا من التصور القائم على أنّ المكان لا يمكن تحديده مسبقاً فقد سعى الناقد غالب هلسا إلى وضع صنافة مكانية، لا سيّما في العمل الروائي، وهي[١]:

١-المكـان المجـازي : وهـو محـض سـاحة لوقـوع الأحـداث لا يتجـاوز دوره التوضـيح، ولا يعبر عن تفاعل الشخصيّات والحوادث البصرية، فتعيش مسافاته من غير أن تعيش فيه.

٢-المكـان الهندسـي: وهـو المكـان الـذي يشـكّل وصـفا لأبعـاد خارجيـة للروايـة، وبدقـة بصـرية وهو أمر يحرم المتلقي من متعة الخيال.

٣- المكـان بوصـفه تجربـة معاشـة : ويعـد مـن أكثـر الأمـاكن تـأثيرا فـي حيـاة الإنسـان؛ لأنّـه قـد يكـون تعبيـراً عـن مكـان عاشـه الكاتـب، فبقـي محفـوراً فـي الـذاكرة، وقـد يعبـر عـن تجربـة معاشة من لدن الذوات .

دلالات المكان في المنجز الشعري:

يخضـع المكـان فـي المنجـز الشـعري لصـور الأشـياء المُعاشـة، وبأشـكاله المتعـددة التـي تعتمـد لغـة تقـوم علـى الإيجـاز والتكثيـف، فهـو يختلـف ويكتسـب قيمتـه مـن تلـك اللغـة التـي تسـهم بتحديـد الـدلالات المكانيـة بوسـاطة المقاربـة السـيميائية، وقـد عبّـر بعـض النقـاد عـن دور المكان بوصفه كاشفاً عن أصحابه وعن حياتهم الشخصيّة، والنفسية، وعن

مـا يتسـمون بـه مـن طبـاع وأمزجـة، فـي حـين أنّ مقاربـة المكـان سـيميائياً تنبثـق مـن إدراكـه بوسـاطة علاقتـه بعنصـر الشخصـيّة وبمـا يتمظهـر مـن مؤشـرات خاصـة بهـا[١] ولـيس أدلّ علـى ذلـك ممـا يـراه الناقـد ياسـين النصـير مـن أنّ المكـان فـي الشـعر ((خاضـع فيـه خضـوعاً مطلقـاً للحـدث، فهـو وسـيلة لا غايـة تشـكيلية أي جعـل العـالم الـذي يتحـدث عنـه الشـاعر محسوسـاً مـن خـلال اللغـة والصـورة، فالشـاعر إذ يتعامـل مـع المكـان، إنّمـا يتعامـل مـع الـزمن، والـزمن لا يتوقـف، وبالتـالي فحضـور المكـان لا يتوقـف كـذلك))[٢]، وهـو رأي يجمـع فيـه الناقـد عناصـر العمـل فـي القصّـة، فـلا فـرق بعـد ذلـك مـن توظيـف تلـك العناصـر فـي المنجـز الشـعري مـا دام تشـييد المكـان بحسـب علاقتـه بالسـيمياء ((تشـييد مكـان لغـوي))[٣] يكشف عن دلالات وأبعاد المكان عبر لغة مكثّفة.

يُجمـع النقـاد علـى حقيقـة مفادهـا: أنّ البحـث فـي تشـكيل علامـات المكـان لا يتضـح إلاّ مـع ارتبـاط المكـان بغيـره مـن العناصـر السـردية، وانطلاقـاً مـن إشـارات ذلـك الإجمـاع رأينـا أن نضـع إشـكالية معرفيـة للبـدء بمقاربـة البحـث : سـيميائية المكـان مـا قبـل حـدث عاشـوراء،

وفيه ينبغي أن نتتبع وصف منازل الطريق التي نزل بها الإمام الحسين(عليه السلام) ونتيجة لعزوف الشعراء عن الإشارة إلى منازل الطريق وقلّة ما ورد من ذكر الأمكنة في النصوص الشعرية لتلك الحقبة الزمنية التي سبقت أحداث عاشوراء، ومن أجل رصد وتتبع علامات المكان علينا أن نضع الإشكالية المعرفية الآتية: كيف يمكن الاهتداء لعلامات المنازل التي نزل بها الإمام الحسين(عليه السلام)، لاسيّما وأنّ الشعراء قلّما ذكروا تلك المنازل في وصف طريق سير الإمام الحسين (عليه السلام)؟

سيميائية المكان ما قبل حدث عاشوراء:

مرّ الإمام الحسين (عليه السلام)، بمنازل كثيرة وهو في طريقه إلى العراق، وقد أجمع المؤرخون على بعض الأسماء لتلك المنازل التي أكسبها نزول الإمام(عليه السلام) بها شرفاً وقدسية على الرغم من عدم ذكر البعض منها واقتصار الأمر على أسماء محدّدة اكتسبت شهرتها وذيوعها في النصوص الشعرية فيما بعد مثل كربلاء، والطف ونينوى، والغاضرية، وقد ذكر المؤرخون (٣٨) منزلاً بدأت بأول تلك المنازل وهي(مكة)، وخُتمت بـ(الطف)[١] في أرض كربلاء.

لم يكن المكان في شعر رثاء الإمام الحسين(عليه السلام) مكانا جغرافياً عابراً، ولم يكن رمزاً يؤشر لعاطفة تنبثق من تأثير حكاية تاريخية، بل راح الشاعر يستدعي تلك الأمكنة؛ لينهل منها ما يفتقده في حاضره المؤلم؛ ليبني مكانه اللغوي بديلا عن امكنته التي ضيّعها .

عند تأمّل النصوص الشعرية ينكشف لنا أنّ الشعراء لم يعبأوا بالمكان في بعده الجغرافي، بل راح معظمهم يصبُّ جلَّ اهتمامه على الحدث وفداحة ما جرى في عرصات الطف، واكتفوا بملفوظات الأفعال الدالّة على السير والنزول والمشي

لقد ذكر السيّد المقرّم في كتابه (مقتل الحسين) تلك المنازل حين رصد ما جاء من دلالات تاريخية وجغرافية حول نهضة الإمام الحسين(عليه السلام)، وسفره الخالد، فكانت المنازل بعد مكة :(التنعيم، الصفاح، ذات عرق، الحاجر، بعض العيون، الخزيمية،

زرود، الثعلبية، الشقوق، زبالة، بطن العقبة، شراف، البيضة، الرهيمة، القادسية، العذيب، قصر بني مقاتل، قرى الطف) . ينظر : مقتل الحسين، للمقرّم، ص١٧٦-١٩٢.

والخطى التي تنتج مسارات لصدى المكان بوساطة تلك الملفوظات؛ من هنا تبيّن لنا أن ملامح المكان كانت باهتة مشوبة بالضبابية .

إنّ محاولة تتبّع العلامات التي تشكّل المكان الشعري في هذا البحث تتطلّب تقسيم المكان على وفق الآتي :

١- ثنائية المكان الأليف -المعادي

إنّ حضور ثنائية المكان الأليف – المعادي في الشعر يدلّ على علاقة متفاعلة بين المكان والشخصيّة بحسب وجهة نظر الشاعر، وإحاطة المكان بالشخصيّة؛ ليوفر لها الأمان، أو يسلبه منها، ومن هنا دعت الحاجة إلى تسمية هذه الثنائية المكانية، ويمكن أن نتلمس مساراً مكانياً يشتمل على تلك الثنائية في قصيدة (شهيد الإباء) للشيخ موسى اليعقوبي، وهو يقول[١]:

فغادرَ مَثْوى جدهِ وعصابةٌ تنكصُ عنها الفيلقُ المتحشّدُ

ليُنقذَ دينَ اللهِ من غمرةِ الشَقا ويُعلي الذي قُدُماً بناهُ محمدُ

سرى ابنُ النبيِّ المُصَطفَى نحوَ نِينوى لِيَجمعَ شملَ الدينِ وهو مُبدّدُ

ينبني المكان في النصّ على مظهرين: يتمثل الأول بالمظهر الجغرافي، إذ تشتمل القصيدة أحياناً على أسماء لأماكن معروفة ومشهورة، حتى أنّها لا تستلزم متتالية من الأوصاف، بل تكتفي غالباً بإشارات وعلامات قليلة ، وقد يُشار إليها بدلالاتها التاريخية بوساطة أحداث ومواقف كانت قد اشتهرت بها.

في حين يتمثل المظهر الثاني بمدوّنات لغوية تؤشر إلى دلالات تُعدُّ بمثابة صدى للمكان، وعلامة على فعل المكان كما هو حاصل في هذا النصّ الذي اشتمل على مظهر مكاني بوساطة ملفوظ الفعل (غادر)، واقترانه بملفوظ(مثوى) في المكوّن التركيبي (غادر مثوى جدّه)، وعند تتّبع مسار النصّ نجد أنّ ملفوظ(مثوى) يحيل على دلالات

مكانية مرتبطة بسياقات الانتقال وترك ومقاطعة المكان [١]. في حين كان ملفوظ(مثوى) من الفعل (ثوى) دالاً على الإقامة مع الاستقرار[٢]؛ لذا كانت تلك العلامات تدلُّ على زيارة الإمام الحسين(عليه السلام) لقبر جدّه (صلّى الله عليه وآله)، وتلك من أمكنة الإقامة، والألفة، بيد أنّ ملفوظ الفعل(سرى) في البيت الثالث ينطوي على دلالة المكان بعد تحوّله من مكان أليف؛ وذلك عندما شعرت الذات بخطورة البقاء، ودلالة ذلك المظهر المكاني الذي يحمل بعداً جغرافياً تمثل بملفوظ(نينوى)، وهو من أسماء كربلاء التي تشير دلالاتها المعجمية* المرتبطة بحقل التاريخ إلى واقعة الطف. لعل ملفوظ الفعل(سرى) الذي يؤشر لدلالة زمنية تتجسّد في المسير ليلا[٣] تعيننا في تحديد نمط المكان، ومن أدلة ذلك ما ورد في قوله تعالى ((فأسْرِ بأهلكَ بقطع من الليل))[٤]، وقد تؤكّد

على وجوب انتقال الذات وتحوّلها من مكانها الأليف مكان الإقامة والاستقرار إلى المكان المعادي الذي ينضوي على دلالة الإنتقال الإجباري والقسري، وعليه فالعلامات التي تشير إلى التحوّل المكاني وردت على وفق رؤية الشاعر في سبب خروج الإمام الحسين (عليه السلام) من مدينة جدّه (صلّى الله عليه وآله) عن طريق منظومة من الأفعال (لينقذ، يعلي، ليجمع)، وبالتالي فإنّ العلامات المكانية لم تتمظهر إلاّ بعد ارتباط المكان بعنصر سردي تمثل بالحدث. من هنا يتجلّى المكان الأول في السفر المصيري الخالد للإمام الحسين(عليه السلام)؛ من إجل الإصلاح في أمّة جدّه (صلّى الله عليه وآله)؛ لذا كانت المهيمنة المكانية في النصّ متمثلة بملفوظ(مثوى) مقروناً بملفوظ(جدّه)؛ للدلالة على المدينة المنوّرة (على ساكنها وعلى آله أفضل الصلاة وأتمُّ التسليم).

٢- ثنائية المكان المفتوح –المغلق:

يسعى الشاعر جواد جميل في مجموعته الشعرية(الحسين لغة ثانية) إلى الكشف عن الرؤى والمواقف عبر لغة شعرية تقوم على الخرق والتشتت والتشظّي واصفا تلك الأمكنة التي ارتادها الإمام الحسين(عليه السلام)، إذ يقول[١]:

وهذهِ الصحْرَاءْ

تَعْرِفُ أنّي عاشقٌ ،
يُخبّئُ البحارَ في تابوتهِ،
وأنَّ بيتيَ الماءْ!
وهذهِ الصحراءْ
تَقمَّصتني فجأةً،
فاتخذتْ من وَجَعِي مرسىً،
ومن تمرُّدي ميناءْ!
وهذهِ الصحراءْ
تفتحُ في وجهيَ عينيها ،
وتَحكِي عن سقوطِ المدنِ العمياءْ!
وهذهِ الصحراءْ
تفتَّحت من عَطشِي ورداً
وإصْراراً ، وكبرياءْ
ولم تعدْ تذكرُ، لا قوافلَ التيهِ ،
ولا مواسمَ العراءْ !

في مقطع معبّر عن ارتياد أمكنة مفتوحة تتصدرها العلامة اللغوية (الصحراء)، وهي المهيمنة في متتالية من العلامات المرتبطة بسياقات تمزج المحسوس بالملموس، فتنهض اللغة الشعرية التي تعتمد الخرق والتشتّت والتشظّي، وقد أحال على المكان التخييلي حين جعل البحار التي تدلّ على الغموض والعمق والغدر والختل تختبئ في تابوته، وهو يوظّف دلالة مكانية لملفوظات (الصحراء والبحار) التي تؤشر إلى المكان المفتوح، و أمّا المكان المغلق فقد تجسّد في ملفوظ(التابوت) الذي يؤشر بدوره إلى دلالة الموت في ثنائية الموت والحياة، لكنّ الشاعر جعل ملفوظ(الصحراء) مهيمنة لغوية تسهم في حركة الذوات، وتكون سببا للأحداث في النصّ الشعري ، ومن الأمور التي ينبغي الإشارة إليها أيضاً التكرار الذي اعتمده الشاعر في توظيفه لملفوظ(الصحراء)، فقد

تصّدرت في مقاطع النصّ الأربعة، فكانت دلالة ذلك كما يبدو لنا الترسيخ، والإنغراس، والتجذّر لهذا النمط المكاني الدال على الغربة فيها بعد أن صار القرب يمثل خطراً واستيحاشاً، وليس أدلّ على ذلك من توظيف ملفوظ(عاشق)، وبالتالي فإنّ ذلك العشق لا يكون إلاّ بوجود الآخر المعشوق الذي يبدد تلك الوحشة، وتحلّ الألفة والأنس محلها، وقد حرص الشاعر في رؤية تأمّلية على توظيف ثنائية تقوم على التعارض والتضاد، وهو متمثل بملفوظي(الصحراء، والبحار) وهما فضاءان جغرافيان ومكانان كاشفان عن دلالات الإتساع، والعمق، واللا انتهاء، والصمت، كما لا يخفى أنّ الصحراء في إحدى دلالاتها تمثل السكون المطلق، والعزلة، والبعد، وانكسارات الروح، لكنّ الحال مع الإمام الحسين(عليه السلام) في رؤية الشاعر وهو يستمدها من الذات المتكلّمة يتحوّل المكان لديه من مكان دال على المجهول والتيه إلى مكان ينطوي على دلالات المواجهة، والقرار، والإصرار وتلك واضحة في المكوّنات التركيبية بعد أن تقمصته الصحراء و(تفتحت من عطشي وردا)(وإصراراً وكبرياء) هذا حال الصحراء حينما توحّدت مع الحسين(عليه السلام)، ورحله المبارك فتناست (قوافل التيه ومواسم العراء). من هنا فالنصّ اشتمل على مظاهر جغرافية تجسدت في ملفوظات (الصحراء، البحار، التابوت، المرسى، البيت، الماء، قوافل، المدن)، أمّا المظهر الآخر من الإشارات المكانية فقد تمثلت بملفوظ الفعل(يخبئ) الذي يحيل على فعل المكان، وعليه فإنّ الشاعر بوساطة وجهة نظره سعى إلى إضفاء طابع شمولي على تلك الرحلة المقدّسة فلم يحدد مكاناً بعينه، إنّما عبر عن أمكنة بطابع العموم، ففي ملفوظ(المدن)يتضح ذلك جليّا. عليه فإنّ من المناسب أن نصف تلك الأمكنة بالفضاءات؛ لاتساعها وشمولها على أمكنة متعددة مثل (البيت، والمدن، والنهر، والقوافل)، وقد تجلّت رؤية الذات في هذا النصّ بمسار تفاؤلي صاعد في توظيف الشاعر لملفوظ الصحراء، وتحوّله من دلالات الجدب والعقم إلى الخصب والنماء، حين وظّف ملفوظ (الماء) في (وأنّ بيتي الماء)، لما ينطوي ملفوظ(الماء) على حمولة إيجابية؛ لدلالته على الحياة والخصب.

٢-سيميائية وصف أرض كربلاء:

لقد اختار الشاعر أرض كربلاء دون سواها؛ للتعبير عن حجم المعاناة الإنسانية ؛نتيجة الظلم، والفساد، وانعدام القيم، فقد احتاج الشاعر أن يستدعي كربلاء التي تؤشر إلى ذلك الرمز الشاخص الذي خاض واقعة أغنت الأدب ولاسيّما الشعر، فقد تحولّت إلى ((مُثل وقيم ورموز للتعبير عن الذات وهويتها(...)، فاستحالت نهجًا يحمل شعلة متوقدة تسمو بالإنسان في آفاق العزة والكرامة))[١] مثلما فعلت واقعة الطف، وعليه فإنّ توظيف الشاعر لكربلاء في الشعر أسهم بدوره في إنتاج دلالات ومسارات سردية مرتبطة بسياقات العزة، والكرامة، وحق الإنسان في تقرير مصيره ومواجهة الظلم.

١- المكان الأليف:

من النصوص الأخرى التي تنطوي على رؤية الشاعر وتصوراته قصيدة (الشهيد الخالد) للشاعر محمد جمال الهاشمي، وهو يعقد تلك الثنائيات الضدية، والتقاطبات في الإحالة على المكان بوساطة ملامح الشخصية المقدسة؛ لتُسهم بدور الكشف والتمظهر لعلامات المكان، فيقول[٢]:

وتعالت في كربلاء شعارات تهزُّ الأجيال شعراً ونثراً
ذاك جيش سدَّ القفار وهذا رجلٌ ، حلَّ فيه جيل وقرَّا
ذاك بالسيف رام نصرا،وهذا بالهدى والصلاح حاول نصرا
ذاك يبغي استبعاد حرٍّ ،وهذا يتوخى أن يجعل العبدَ حرا

---

١) أثر كربلاء في الشعر العراقي في القرنين الثالث والرابع للهجرة، بلاسم حسن الخفاجي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ٢٠١٢، ص٢٤٨.

٢)الإمام الحسين (عليه السلام) في الشعر النجفي، ٢ /١٠٧.

عند تأمّل النص يتجلّى لنا موقف الشاعر من رؤية كربلاء وهي تفجر طاقات الإبداع بما توحيه من دلالات ومعانٍ ليكون المكان (كربلاء)مكانا تنظيرياً بحسب رؤية الشاعر، وقد تمظهرت الأدلّة المرتبطة بسياقات اعتمدت الوصف أسلوباً لها الذي يُعدُّ بمثابة وصف تفسيري، ومن تلك التقاطبات بين الذاتين ما مؤشر إليهما(هذا، وذاك)؛ من أجل بيان

وتفسير ما يجري من أحداث تنهض بها الشخصيات في تلك البقعة المباركة(كربلاء)، وبالتالي فالمكان يحمل بعداً رؤيوياً ومكاناً أليفاً من دلالاته انتصار الكلمة على السيف بوساطة ملفوظات (الصلاح، والهدى)، وانّ الغلبة للواحد على الجيش الكبير(ذاك جيش سدّ القفار وهذا)(رجل، حل فيه جيل وقرّا)؛ نتيجة تمسكه بالمبادئ والقيم.

- المكان الجغرافي من الأليف إلى المعادي :

أمّا الشاعر راضي مهدي السعيد في قصيدته(الفارس الصريع وكربلاء الهزيمة) فينطلق من رؤية تشاؤمية اقترنت بكربلاء في بعدها الجغرافي، إذ يجسّد موقف الكثير ممن لا يقفون مع الحق ولا ينصرون المظلوم ولم يستلهموا من دروس الحسين(عليه السلام) في الرفض ومحاربة الجور والفساد، فيقول[١]:

في كربلاء الأمس كان الجرح والهزيمة
لأمّة لم تحملْ الراية حين شبّت السيوف
واخترقت مفاوز الصحراء خيل تمتطيها أذرع لئيمة
ترهب فارساً أتاها يزرع الحتوف
في أعرق تشدها خطى محاريب
سنين شمسها رميمة

في مسار توصيف الشاعر لكربلاء بوصفها مكانا معادياً بما ينطوي عليه النصّ من دلالات الغدر ونقض العهود والتخاذل عن نصرة المظلومين عمد الشاعر إلى رصد منظومة الأحداث عن طريق توظيف عنصر المكان السردي، وتقنية المشهد الذي يتساوى فيه زمنا السرد والحكاية، فيحيل على الزمن بملفوظ(الأمس)؛ ليماهي بين أمس كربلاء واليوم بظلم الحكام والطواغيت، ومن مجموع الأدلة المرتبطة بسياقات سلوكية تجسّدت في ملفوظات الفعل (تحمل، شبت، اخترقت، تمتطيها، ترهب، تشدها) وملفوظات تنتمي لحقل معجمي يختص بالحرب منها(الجرح، الهزيمة، الراية، السيوف، خيل، فارساً، الحتوف، محاريب)، ومن دلالات المكان بوصفه مكاناً جغرافياً نرصد مجموعة من الأدلة المرتبطة بسياقات تحيل على مكان حقيقي منها الملفوظ المكاني

المهيمن (كربلاء)، و(مفاوز، الصحراء) في المكون التركيبي (واخترقت مفاوز الصحراء خيل تمتطيها أذرع لئيمة)، وملفوظ الفعل (يزرع) في المكوّن التركيبي (ترهب فارساً أتاها يزرع الحتوف) ، وملفوظ(خطى) في المكوّن التركيبي (في أعرق تشدها خطى محاريب). وبالتالي فالمكان بعد ذلك مكان ذو بعد جغرافي معادٍ.

عليه فقد تمظهرت العلامة المكانية في قصيدة السرد الشعري؛ لترصد لنا تلك التحولات بحسب اقترانها برؤية الشخصيات للمكان وتعالق عناصر السرد الأخرى من حدث وزمان مع العنصر المكاني الذي جسد إطارا محيطا في بنية قصيدة السرد الشعري.

الخاتمة :

- جسّد الشاعر التحوّلات المكانية بوساطة توظيف علامات تمظهرت بدورها في المدوّنة الشعرية تؤشر إلى متتالية من الملفوظات تدلّ على المكان.
- اشتملت سيميائية وصف أحداث ما قبل عاشوراء، على قسمين : الأول خصص لوصف منازل الطريق التي سار بها الإمام الحسين(عليه السلام)، وحلّ في بعضها، فكان هذا المكان مكاناً ضبابياً باهتاً لم يكشفه النصّ في المنجز الشعري. وذلك يدعو إلى تأمّل الحدث وقراءة المرجعيات الخاصة به عند أرباب المقاتل والسير، وهو أمر لا يمتُّ بصلة مع المقاربات النصيّة.
- تمظهرت العلامات السيميائية عن طريق ملفوظات تُعدُّ صدى للفعل المكاني، فاشتملت النصوص على ملفوظات مثل (سار، ساروا، المسير، الركب، نزلوا)، وكل لفظ من شأنه أن يُوحي بالسفر والتنقّل .

– كان القسم الثاني مختصاً بسيميائية وصف أرض كربلاء، وفيه اتضحت معالم البعد الجغرافي لملفوظ كربلاء والتسميات الأخرى مثل: الحائر والغاضرية، نينوى وغيرها. في هذا القسم ظهرت إشكالية معرفية تبلورت في الخلط بين ملفوظ كربلاء وما أريد به من دلالات مع ساحة الطف، فقد وظّف الشعراء ملفوظ كربلاء في نصوص تحمل بعداً جغرافيا لأرض كربلاء ،وأخرى برؤية ذاتية ذات طابع انفعالي ووجهات نظر.

– يجمع النقاد على حقيقة تكمن في أنّ البحث في تشكيل علامات المكان لايتم إلا مع ارتباط المكان بغيره من العناصر السردية.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

- أبعاد المكان ودلالاته في رواية البيت الأندلسي لواسيني الأعرج– دراسة سيميائية– مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر، جامعة ٨ ٠ ماي ١٩٤٥ ، كلية الآداب واللغات، الجزائر، ٢٠١٧ .
- أثر كربلاء في الشعر العراقي في القرنين الثالث والرابع للهجرة، بلاسم حسن الخفاجي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١ ،٢٠١٢.
- إشكالية المكان في النصّ الأدبي، ياسين النصير، سلسلة نقد ، بغداد ، ط٢، ٢٠٢٠.
- الإمام الحسين(عليه السلام)في الشعر النجفي، كامل سلمان الجبوري، دار القارئ، بيروت –لبنان، د. ط، ١٤٣٠هـ.
- بناء الرواية ، سيزا قاسم، مكتبة الأسرة ، مصر، د. ط ، ٢٠٠٤ .
- بنية الشكل الروائي (الفضاء – الزمن – الشخصيّة)، حسن بحراوي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٠ .
- تأويل النصّ الروائي في ضوء علم اجتماع النصّ الأدبي، عبد الهادي أحمد الفرطوسي ، بيت الحكمة، بغداد، ط١، ٢٠٠٩ .
- تحولات المكان الحسيني في الشعر العراقي ١٩٩٠–٢٠١٠، شذى عبد الكاظم الحلي، قسم الشؤون الفكرية والثقافية، العتبة الحسينية المقدسة، ط١، ٢٠١٦.
- الحسين لغة ثانية، جواد جميل، المجمع العالمي لأهل البيت(ع)، قم، د. ط، ١٩٩٦ .
- جماليات المكان ، جماعة من الباحثين، عيون المقالات ، الدار البيضاء ،ط٢ ، ١٩٨٨ .

- جماليّات المكان، غاستون باشلار،ت: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، ط٢، ١٩٨٤ .
- الرواية والمكان، ياسين النصير، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، د. ط، ١٩٨٦ .
- سيمياء المكان في شعر محمود درويش، حسن غانم الجنابي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ٢٠١٦ .
- مفردات غريب القرآن، الراغب الأصفهاني ، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، د. ط ، د .ت.
- مقدمة في السيميائية السردية، رشيد بن مالك، دار القصة للنشر، الجزائر، د. ط، ٢٠٠٠ .
- مقتل الحسين ، للمقرّم، مؤسسة النور للمطبوعات، بيروت– لبنان،ط١، ٢٠٠٢ .
- معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، (د.ط)، (د.ت).
- معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، ت: عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر، لبنان، (د.ط)،(د.ت).
- موسوعة الموسم ، محمد سعيد الطريحي، أكاديمية الكوفة –هولندا /ع/١٠٤، س/٢٦، ٢٠١٤، ص٢٧٦.